

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تجديد دماء العربية

توطئة

هذه دعوة إلى التجديد لا التبديل، لأن التبديل لا ينبغي إلا حيث فسدت الدماء فسادا لا رجاء بعده . ثم إن التبديل تخلُّ عن الشخصية، وتفريطٌ في الهوية ، وإفراط على النفس باستسلامها غير المشروط لقهر دماء غريبة عليها لا تجرى مجراها إلا في عروق ضامرة من جسد ضارٍ متهالك ، وهيات أن يقع ذلك موقعا من لغة ذات مجد مؤثِّلٍ كالعربية .

التبديل حركة من الخارج إلى الخارج (أي الخواء) أيضا لأن اللسان آلة الفكر و صولجان ملكه و إزميل نحته ، و الفكر الذي يستأصل لسانه من الجذور ليصطنع لنفسه لسانا سابق التجهيز والتشكيل من قِبَل فكر مغاير هو أشبه بالوعاء المخروق الذي لا يعي و لا يستوعب و لا يُمسك على شئ . أما التجديد فإنه غزو باتجاه المستقبل يتأثر و كلُّ تيارٍ محيط بما يزيد الفكر ثراء ، فيتسع محيط اللغة و تتراعى شطآنه ، و كلما ترامت و تباعدت لا تلبث أن تلامس شطآن غيرها من لغات سادت تحت إمرة فكر صقلته علوم يضيق بها الزمن ، و يعجزُ عن ملاحقة و ثبها صوب مستقبلٍ أبعد من مستقبله الوشيك ! نعم ، إن الفكر المعاصر - والعلمى منه بخاصة - ينضو عن جسده ثوب الزمن و يوسع آفاق اللغة تحتنا و توليدا في تكاثر لفظي مطرد . و في خضم ثورة الفكر هذه يُعملُ قانون تطور اللغات و احتكاكها نصله - بغير هوادة - في كل لسان قصر عن مجارة النمو المطرد للفكر العالمي ، و تكون الغلبة للسان الفتى الطموح المواكب عصره في كل علم و كل فن . فلا بد لكل لغة من أن تسير الفكر في سيرورته . أما إذا انقلبت الآية ، و صار الفكر تابعا للغة ، جَمَدَ الفكر و يَبَسَّتِ اللغة و هَرَمَتِ طاقة التجدد .

و لنا في استقراء التاريخ شاهد على أن قوة لغة من اللغات ، و صلابتها في معترك الاحتكاك بغيرها من السنة أممٍ غازية أو مجاورةٍ إنما يُقاسان بقوة و صلابة الحضارة و الفكر اللذين تمثلهما تلك اللغة في العصر الذي وقع فيه الاحتكاك ، و أن اللغة - في حد

ذاتاً - هي غير ذات بال يُدكر في هذا الصراع ، و إنما الفكر الذي تنعكس صورته في صفحتها. فإن كان هذا الفكر من القوة بمكان وقف من أمامها درعاً ومن ورائها ستنداً بما يكتب لها البقاء و الصمود في مواجهة المد اللغوي الدخيل مهما بلغ من عُتُوّ و بأس . على أن عصف اللسان الدخيل باللسان القومي لا يحول دون تأثير كليهما في الآخر، بل إن اللغة المنتصرة في هذا الصراع تخرج بمحصول من مفردات اللغة المنهزمة ينضاف إلى معجمها كما هو في الأصل أو مُطوّعاً بما يوائم الأصوات اللغوية للسان المنتصر . أما إذا تعادل المصطرعان و لم يُفوّض أحدهما الآخر ، فإنهما يتجاوران في الموقع المكاني الواحد دون أن يمتنع أحدهما على الاقتباس من خصمه و الأخذ عنه .

هكذا هزمت اللاتينية اللغات الأصلية لإيطاليا و أسبانيا و أرض غالة (الجلول) La Gaul (فرنسا و ما إليها) و الألب الوسطى Centrales Alpes وإليريا Illyrie عندما فتح الرومان وسط أوروبا و جنوبها وشرقها ، رغم أن الرومان كانوا أقلية في هذه البلاد قياساً إلى سكانها الأصليين . وهكذا سادت اللاتينية أوروبا عدة قرون باعتبارها لسانها الموحد الفصحح في لغة العلوم الطبيعية و الفلسفة . ثم هكذا هزمت اللاتينية من بعد في إيطاليا بلغة الشعر وحده كما جرى على لسان بترارك Petrarch و دانتي Dante .

و فيما يشبه انتصار اللاتينية في سالف عهدها سادت اللغة الآرامية البلاد الناطقة بالأكادية و الفينيقية و العبرية بعد أن غزاها الآراميون .

و هكذا أيضاً انتصرت العربية على القبطية المصرية و على البربرية في الشمال الأفريقي و على الكوشيتية Courbétique في قسم من الشرق الأفريقي بعد الفتح العربي لهذه الأثناء جميعاً .

لقد كانت الغلبة في هذه الصراعات اللغوية غلبة فكر على فكر أدنى منه، وليس بالضرورة غلبة حضارة على حضارة أحط منها، فحضارة العرب الذين فتحوا مصر لم تكن تنعم بما لحضارة المصريين من مجد تليد ، فهذا مما لا يمارى فيه أحد ، بل إن حضارة العرب إذ ذاك لم تكن بعد قد شبت عن طوق البداوة إلى فتوة الحضارة التي دبت في أوصالها بعد أن خالطت أماً قطعت من قبلها أشواطاً كبيرة على درج الارتقاء و التمدن . فأيُّ فكرٍ عربي ذاك الذي كُتبت له الغلبة على فكر المصريين ؟ إنه فكر القرآن بغير شك و ما انتظم من قيم إنسانية رفيعة تعلو على فكر البداوة و الحضارة جميعاً . ولم يكن اللسان الغالب في كل ذلك إلا مظهرًا ثقافيًا لتلك الغلبة. بيد أن اللسان المصري القبطي لم يكن هشاً إلى

الدرجة التي تُخصدُ عندها شوكته دون عناء في مواجهة الموجة العاتية للغزو العربي ، فقد اشتمت العربية والقبطية في صراع مرير بحيث ظل انتشار العربية بطيئاً إبان القرن الهجري الأول إلى أن ولى الوليد بن عبد الملك بن مروان أخاه عبد الله على مصر فأمر عام ٨٧ من الهجرة (٧٠٥ م) بنسخ الدواوين بالعربية بعد أن كانت تُكتب باليونانية ، لا القبطية كما هو شائع خطأ ، أما القبطية فقد كانت لغة الحديث بين المصريين . وطلق التحول من الكتابة باليونانية والحديث بالقبطية إلى الكتابة والحديث بالعربية يأخذ مجراه بالتدرج خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، حتى جاء القرن الرابع فتحول اللسان المصري إلى العربية ونسب القبطية ، حتى أصبح رجال الكنيسة أنفسهم يلقون مواعظهم بالعربية.

ولا يعنى ذلك انقراض القبطية في مصر لأن المقرئى يذكر انتقال المأمون في ريف مصر و معه مترجم، و قد كان دخوله مصر سنة ٢١٧ للهجرة . كما يذكر المقدسي في " أحسن التقاسيم " المؤلف سنة ٣٧٥ للهجرة أن القبطية كانت لغة حديث بعض مسيحي مصر ، يُضاف إلى ذلك أنها لم تزل إلى يومنا هذا لغة الطقوس الدينية الأرثوذكسية. أضف إلى ذلك تغلغلها في العامية المصرية على نحو بالغ الوضوح .

و لعلك ترى الآن الفرق بين الفكر الإنساني في لحظة تاريخية معينة عند نقطة تقاطع زماني - مكاني محددة وبين الخلفية الحضارية للموقع الذي اشتعل به أوار الصراع اللغوي . و كم من أمم قهرها الغزو الأجنبي فلم يفت في عَضُدِهَا اللغوي ، و لم ينل من لسانها أدنى منال لأنها كانت أمماً ذات شأو بعيد في الحضارة الإنسانية، و لنا في مصر في مواجهة الاحتلال البريطاني في عصرها الحديث أبلغ مثال و دليل على ذلك .

و عندما قَوَّضَ الغزو الجرمانى الإمبراطورية الرومانية الغربية في مطالع العصور الوسطى فَشِلَ اللسان الجرمانى في قهر اللاتينية بأرض غالة. وبالمثل فَشِلت اللاتينية في قهر لغات بريطانيا رغم غزوها من قِبَل الرومان واحتلالها نحو القرن و نصف القرن من الزمان.ومن قِبَل ذلك فَشِلت اللاتينية في التغلب على الإغريقية لأن الإغريق ، على خضوعهم للرومان، كانوا ذوى بأس حضاري و فكري ولغوى لا يُستهان به تجلّى فيما ترك مسن بصمات إغريقية واضحة على لغة اللاتين.

وكذلك فشلت العربية في قهر لغة الفرس بعد غزوهم لأن الشعب العربي لم يكن إذ ذاك أرقى حضارةً من الشعب الفارسي، ولكن الفكر القرآني كان أمضى من نصل السيف في انتشار العربية على لسان الفرس في مجاورة للغتهم القومية فيما يُعرف في علوم اللسانيات المعاصرة بالثنائية اللغوية *diglossism* ، و إنك تعلم أنه قد خرج منهم جهابذة العلماء والفلاسفة وفقهاء العربية و الأدباء ممن أثروا حضارة العرب بمصنفاهم التي وُضعت بلسان عربي مبين. و إذا كان الصراع بين العربية و الفارسية لم يُحسم لصالح أيهما فإن كلتا اللغتين قد تركت آثاراً بالغة الجلاء من مفرداتها على لسان الأخرى .

أما فشل العربية في قهر اللغات الأسبانية رغم احتلال العرب الأندلس زهاء سبعة قرون ، فإنه راجع إلى اختلاف الفصائل اللغوية بين لغة العرب و لغة الأسبان من جهة، و إلى عدم امتزاج الدم العربي بالدم القوطي امتزاجاً كافياً من جهة ثانية ، و إلى تصدى العقيدة المسيحية الكاثوليكية للمد اللغوي العربي على اللسان القوطي من جهة ثالثة ؛ وهذا لا ينفي تأثير الأسبانية و البرتغالية بالعربية تأثيراً بالغاً ، و لكنه لا يرقى إلى درجة القهر و محو الشخصية اللغوية .

و قد عجزَ اللسان التركي عن إقحام نفسه على لغات جُلّ الأمم التي غزتها الدولة العثمانية لا لاختلاف الجذور اللغوية بينه و بينها فحسب، وإنما بالأحرى لضعف ثقافة الترك و افتقارهم إلى فكر قادر على التغلغل إلى الروح الحضاري للأمم التي قهروها بقوة السلاح ، حيث يبرهن لنا التاريخ على أن هذه القوة الغشوم هي أعجز من أن تفرض لغة بلا فكر مائل في تراث أدبي أو علمي أو ديني .

أما و قد أثبتت العربية ، في محك الزمن ، أنها لغة حية ، تؤثر وتتأثر بالطبع لأن هذا من سمات الأحياء دون غيرهم ، فإن السؤال الملحّ الذي نطرحه : " هل قصّرت العربية عن الإسهام بالدور الذي ينبغي لها في التراث الإنساني ؟ " و يفرض أنها لم تُخز و لم تتوان عن هذه المسؤولية المصرية فيما أبدعت من آداب على امتداد تاريخها ، أتراها تخلّفت عن ملاحقة علوم العصر (الطبيعية منها بخاصة) فما عثمت أوراق العلم أن ذوت و تهاوت من دوحتها ، بينما أبيت جاراتها أوراق الأدب ؟

و السؤال الأرحب من هذين : " لمن السيادة على الآخر في العقل العربي: للغة أم للفكر ؟
". إنها الطامة الكبرى إذا كُتِبَ للغة الغلبة على الفكر لأنه لا يملك آنذاك إلا الانضواء
تحت لوائها ، و تَفْيُؤُ فَيءٍ مَلصِقاً الجاهزة العتيقة اتقاء حرارة التجديد و جذوة التوثب
و التحفز للحياة .

يقول الجرجاني في أسرار البلاغة : " ... فقد تبين لك أن ما يعطى التجنيس³ من الفضيلة
أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى ... و ذلك أن المعاني لا تدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس
إليه ، إذ الألفاظ خدم المعاني و المصروفة في حكمها ، و كانت المعاني هي المالكة سياستها ،
المستحقة طاعتها. فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته ، و أحاله
عن طبيعته ... "

لا مفرٌ إذن - إن أردنا بعريبتنا خيراً - من إطلاق الفكر من قمقم اللفظ . بل إن اللفظ
ذاته كائن متجدد قابل للتدوير و التشكيل والإيحاء بمثل ما هو قابل للإحياء و البعث من
دياجير المهمل والمهجور . و السيد المطاع الذي لا رادٌ لأمره في كل ذلك هو الفكر و
حاجاته المعاصرة و نهمه إلى الاعتراف من علوم العصر و فنونه ، لا فَمَ السَّغْب الذي لا
يلبث أن يتراخى و يخلد إلى السُّبات بعد الامتلاء ، وإنما فَمَ المبدع الذي يَلْقَمُ لِيَعْدَى و
ينهَل ليروى .

و اللغة " مسكن الكينونة " على قول " مارتن هيدجر " لأنها المسرح الذي ينبثق عليه
الوجود ، و لا يخفى مفهوم الانبثاق أو البروغ في كلمة الوجودية *Existential* في غير العربية
من لغات. والهاجس الذي لا يبي يطارد كل عربي مشتغل بالعلم هو موقع لغته - و
بالأحرى فكره و من ثم وجوده - من تراث الإنسانية و تيارات ثقافتها المتعددة التي تمنح
في عالمنا المعاصر إلى تحقيق أقصى قدر من التقارب و الوفاق و التواضع على توحيد
المصطلح حتى يقرأ العالم كله فكراً إنسانياً شاملاً *Cosmopolitan* لا تلبس فيه و لا لغو ، متاحساً
لكل مواطن عالمي في لغته الخاصة عن طريق الترجمة . وها هنا تلقى على كاهل الترجمة أمانة
نقل الفكر باللغة الجارية جريان النهر المتجدد ، لا اللغة الآسنة التي لا توج و لا تضطرب
لكل غَلْجَة من خلجات الفكر الدءوب على النمو و الارتقاء و التطور . هذا و لا
تعنى سيادة الفكر على اللغة أن يتحول اللفظ إلى كائن مُصَمَّت مُعْتَم ، بل إن الفكر

يستلهم اللغة فتشحذه ليصير مِبْصَعُهُ أَكْثَرَ مَضَاءً فِي جِسْمِهَا كَشَفَا عَنْ مَكْنُونَاتِهِ وَ مَمَكَّنَاتِهِ وَ تَدَاعِيَاتِ الْفِكْرِ فِي أَحْشَانِهِ .

و إِنَّا لَنَقْرَأُ الْعُلُومَ الطَّبِيعِيَّةَ مِنْ فَلَكَ وَ فِيزِيَاءِ وَ جِيُولُوجِيَا وَ طَبِّ وَ بِيُولُوجِيَا وَ حَيَوَانَ وَ نَبَاتِ وَ مَا إِلَي ذَلِكِ ، وَ نَقْرَأُ الْعُلُومَ الْإِنْسَانِيَّةَ مِنْ فِلْسَفَةٍ وَ اجْتِمَاعِ وَ مَا إِلَيْهِمَا ، وَ نَقْرَأُ الْإِنْثِرُوبُولُوجِيَا وَ عِلُومَ اللُّغَةِ وَ اللِّسَانِيَّاتِ ، وَ نَقْرَأُ النِّقْدَ الْفَنِّي الَّذِي أَصْبَحَ عِلْمًا لَا مِرَاءَ فِيهِ سِوَاءَ تَنَاوُلِ عَمَلَا شَعْرِيًّا أَوْ رِوَايَا أَوْ مَسْرُحِيًّا أَوْ سِينِمَايَا أَوْ مُوسِيقِيًّا أَوْ تَشْكِيلِيًّا ، نَقْرَأُ هَذَا كُلَّهُ فِي غَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ فَتَلْقَى مِصْطَلَحًا عِبْقَرِيًّا الْفَوْذُ إِلَى لَبِّ الْمَعْنَى كَمَا أَمَلَاهُ أَوْ اشْتَقَهُ أَوْ أَجَازَهُ أَوْ نَحْتَهُ الْفِكْرَ الثَّاقِبَ السَّابِرُ غَوْرَ اللُّغَةِ الَّتِي يَنْطِقُ بِهَا . وَ إِنَّا إِذْ نَطَالِعُ الْمَعْجَمَاتِ أَوْ الْمَوْسُوعَاتِ الَّتِي أَفْرَدَتْ لِكُلِّ عِلْمٍ مِنْ هَذِهِ الْعُلُومِ وَ غَيْرِهَا (فِي لُغَاتِ الْغَرْبِ) نَلْقَى تَوْحِيدًا وَاجْتِمَاعًا لَا يُشْقُ لَهَا غِبَارٌ ، بِمَا يُوَصِّدُ مَنَافِذَ الْخَلْطِ وَ يُغَلِّقُ أَبْوَابَ التَّخْبِطِ أَمَامَ الْقَارِيِّ وَ الْبَاحِثِ وَ الْكَاتِبِ جَمِيعًا . ثُمَّ إِنَّا نَطَالِعُ نِظَائِرَ هَذِهِ الْمَعْجَمَاتِ وَ الْمَوْسُوعَاتِ فِي لُغَتِنَا الْعَرَبِيَّةِ فِي مَخْتَلَفِ الْأَقْطَارِ الْنَاطِقَةِ بِهَا ، فَتَلْقَى خُلْفًا مَا وَرَاءَهُ خَلْفٌ وَ شِقَاقًا مَا بَعْدَهُ شِقَاقٌ . وَ هَذَا عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْجُهُودِ الْجَمْعِيَّةِ لِجَمَاعِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِرَادِيٍّ وَ جَمْعًا ، وَ جُهُودِ مُؤْتَمَرَاتِ وَ نَدَوَاتِ الْجَمَاعِ وَ الْإِتِّحَادَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَ الْمُهْنِيَّةِ وَ الْجَامِعِيَّةِ الَّتِي كَانَ شُغْلَهَا الشَّاعِلَ دَائِمًا تَوْحِيدَ الْمِصْطَلَحِ الْعِلْمِيِّ الْعَرَبِيِّ مِنْذِ الْمُؤْتَمَرِ الْأَوَّلِ لِلإِتِّحَادِ الْعِلْمِيِّ فِي الإسْكَندَرِيَّةِ عَامَ ١٩٥٣ وَ الْمُؤْتَمَرِ الْأَوَّلِ لِإِتِّحَادِ الْجَمَاعِ اللُّغَوِيَّةِ عَامَ ١٩٥٦ وَ مُؤْتَمَرِ التَّعْرِيبِ الْأَوَّلِ فِي الْمَغْرِبِ عَامَ ١٩٦١ الَّذِي كَانَ بَاكُورَةَ سِتَّةِ مُؤْتَمَرَاتٍ لِلتَّعْرِيبِ عَلَى امْتِدَادِ سَبْعِ وَ عَشْرِينَ سَنَةً حَتَّى عَامَ ١٩٨٨ ، وَ مُؤْتَمَرِ تَوْحِيدِ الْمِصْطَلَحَاتِ الْعِلْمِيَّةِ فِي الْجَزَائِرِ عَامَ ١٩٦٤ . وَ قَدْ بَدَلَ مَكْتَبُ مُؤْتَمَرِ التَّعْرِيبِ جِهْدًا لَا يُنْكَرُ ، إِذْ أَنْجَزَ ثَلَاثَةَ وَ ثَلَاثِينَ مَعْجَمًا مِتَخَصِّصًا حَتَّى بَلَغَ عِدَدُ الْمِصْطَلَحَاتِ الَّتِي وَحَدَّهَا حَتَّى عَامَ ١٩٨٣ سَبْعِينَ أَلْفَ مِصْطَلَحٍ فِي ثَلَاثَةِ وَ عَشْرِينَ عِلْمًا مَخْتَلَفًا .

وَ إِذَا كَانَتْ مَهْمَةُ التَّوْحِيدِ الْإِصْطِلَاحِيِّ كَمَا عَيْنَهَا إِبْرَاهِيمُ بِيُومِي مَدْكُورٌ فِي مَقْدَمَتِهِ لِمَجْمُوعَةِ الْمِصْطَلَحَاتِ الَّتِي أَقْرَأَهَا الْجَمْعُ اللُّغَوِيُّ الْمَصْرِيُّ هِيَ : " وَضَعُ مِصْطَلَحٍ وَاحِدٍ لِلْمَفْهُومِ الْعِلْمِيِّ الْوَاحِدِ ذِي الْمَضْمُونِ الْوَاحِدِ فِي الْخَقْلِ الْوَاحِدِ " (د . إِبْرَاهِيمُ مَدْكُورُ ، مَجْمُوعَةُ الْمِصْطَلَحَاتِ الَّتِي أَقْرَأَهَا الْجَمْعُ - ج ٩ : ١ - الْمَقْدَمَةُ) ، فَهَلْ وَضَعَ مَكْتَبُ مُؤْتَمَرِ التَّعْرِيبِ - فِي الْمَهْمَةِ الْجَلِيلَةِ الَّتِي اضْطَلَعَ بِهَا بِإِنْجَازِهِ هَذِهِ الْمَعْجَمَاتِ الْمِتَخَصِّصَةَ - نُصْبًا

عينيه هذا المنهج الحادّ في دقته و إيجازه كما ورد بعبارة مذكور ؟ و إذا كان قد وُفق إلى ذلك ، فهل حَظيت العربية ، بالفعل لا بالجهد النظري الشكلي ، بهذا التوحيد للسائما العلمي بين الأقطار العربية كافة ، قانعة به ، راضية مرضية ؟ و هل أطرحت العربية من لسائما العلمي كل ما خالف ذلك التوحيد الاصطلاحي فأقفل باب الاجتهاد الفردي في وجه من طَمَح إليه من بعد ؟ و هل أنجز ذلك التوحيد بمباركة و تصديق اتحاد الجماع اللغوية العربية أم بعض الجماع و حسب ؟ و هل روعى على سبيل التوحيد تلك اعتماد اللقواعد و الأصول التي ينبنى عليها التوليد والاشتقاق لما يستجد من مصطلح في علوم لا تني تضيف كل يوم مزيداً من المفردات إلى لغتها بطبيعة ما تقتضيه حاجة العلم الملحة إلى توسيع لغته بحكم التوسع في فكره و مفاهيمه و كشفه ؟

الحق أن باب الاجتهاد الفردي لم يُقفل ، فالإصدارات العربية من معجمات العلوم لا تتوقف ، لأنك لا تملك منع اجتهاد مجتهد ، و لا ينكر منكر أن البعض من هذه المعجمات سين ، غزير في مادته ، و إن خرج على إجماع مؤتمر التعريب في بعض مصطلحاته ، و لا ينكر منكر في المقابل أن الكثير من هذه المعجمات غث في مادته مغرب كل الإغراب في مصطلحه ، بل غاص بالأخطاء العلمية الفادحة في الترجمة ، فإنك تلقى في معجم " حتى " الطبي ، مثلاً لا حصراً ، (و هو أشهر المعجمات الطبية العربية قاطبة وأكثرها رواجاً) كلمة *coronary* (و هي من أيسر و أشهر مصطلحات القلب تشريحاً و أمراضاً) مترجمة هكذا : " إكليلي ، تاجي " ، و من المعلوم لطالب الطب بل لطالب المرحلة الإعدادية و الثانوية أن الإكليلي أو التاجي لفظة متعلقة بالشرابين التاجية للقلب و أن المرادف الإنجليزي لكلمة تاجي أو إكليلي هو *coronary* ، أما لفظة *coronary* فإنها تسمية متعارف عليها لأحد صمامات القلب ، و لا تحمل ترجمة بل تُعرب كما هي إلى كلمة " ميطالي " .

و هكذا ترى أن الفرقة بين العرب ضاربة أطنابها في لغتهم العلمية بمثل ما هي ضاربة أطنابها في لغتهم الأدبية ، فإن لغة الشعر و الرواية و لغة الترجمة الأدبية و لغة النقد في لبنان مثلاً ليست بلغة هذه الفنون في مصر ، و إذا كانت هذه الفرقة أمراً وارداً ، بل طبعياً و مطلوباً في لغة الأدب من حيث إن الإبداع الأدبي يقتضي التعدد في الاتجاهات و المشارب ، فإن هذه الفرقة في اللسان العلمي منكرة أشد التكر لأنها تعكس تشبهاً في الفكر العلمي العربي ، و تضعه في صورة العاجز عن استيعاب علوم عصره والتعبير عنها في لغته بوضوح

و دقة ، كما أنها تُحطُّ من شأن العربية ، فينال منها النائلون ويشيرون الشكوك والهواجس في قدرتها على التعبير عن علوم العصر ، حتى رأينا بنى العرب أنفسهم يَصْمُونَ لغتهم بالعجز عن مجارة العلم الحديث في لغته ، و يُرَوِّجون للقول الخائب المأثور : " بأنها لغة أدب لا لغة علم " .

و إنه لثار للعجب و التساؤل أن يُكَلَّلَ مطمح لغات الغرب - على تعدد أصولها - بالتوفيق إلى التوحيد الاصطلاحي في العلوم و الفنون ،

و ذلك باصطناع الجذور اللاتينية و اليونانية توليدا و اشتقاقا و نحتا حتى في اللغات الأنجلوساكسونية و السلافية و سواها من السنة لم تنحدر من أصل لاتيني أو يوناني ، بينما أُمّ باللسان العربي العيُّ و الحَصْرُ عن حسم هذه المسألة و المهمة الحضارية حسماً نهائياً شافياً .

ليست اللاتينية باللغة المهجورة المطوية في ذاكرة التاريخ ، كما يرذد البعض ، لأنك تلقاها حية نابضة نبض القلب الشاب من لغة كل علم

و كل فن . نعم أطرحها الألسنة لئمة للتخاطب بمثل ما انفتحت لها مصاريع العلوم و الفنون لغةً للتواصل العالمي . نعم ضاق المتكلمون ذرعاً بتصاريف أفعالها و حركات الإعراب في بنيتها العبارية، و لم تُضِقْ بها المعجمات و الموسوعات المتخصصة للتعبير الذي لا يتكَبَّ جادة الصواب و حسن الإصابة لعناه المنشود . و الأكثر من ذلك أن العديد من أفاظها و عباراتها دخل دخولا يسيرا غير متكلف على اللغات الغربية ينطق به لسان المثقف يمثل ما يجرى على لسان رجل الشارع ، في اللغة العادية غير المتخصصة ، بلا عناء ولا مشقة . وقد أفردت هذه اللغات الرُحبة المعجمات الخاصة بالدخيل عليها من مفردات الكلام المعتاد و غير المعتاد المستعارة من اللاتينية و من جاراتها الدانيات و جاراتها القاصيات - و من بينهن العربية دون شك - إذ أيقنت أن الدخيل ، في موضعه الصائب ، نصلُّ أوكامى حادّ القطع في الإفصاح عما يعتمل في الفكر بدقة لا يأتيها الباطل من بين أيديها و لا من خلفها . و لم تحُلْ في ذلك كله أثرٌ وطنية و لا نعرَةٌ قومية دون تجديد الدماء و تدفقها في عروق هذه اللغات و فقه مقتضيات العصر و حاجات الفكر الطارئة عليه .

و إنك لتجد في الإنجليزية طائفة من الكلمات الفرنسية و اللاتينية و الإيطالية و الألمانية بل العربية الأصل ، حتى إن هناك من معجمات الإنجليزية ما يورد مفردات و عبارات

كاملة مستقاة مما يربو على أربعين لغة أجنبية ، و تجد مثل ذلك في معجمات كبرى لغات العالم الحية باعتبار الفكر - بكل أدواته من لغات شتى - ميراثا عالميا و حقا مكتسبا يسمو بحركة التطور المعرفي للذهن فوق تحديدات المكان والزمان معاً .

و يثير عجبَ المطالع لمعجمات علوم اللسانيات العربية - و هي أولى من غيرها من العلوم كافةً بالرعاية اللغوية - اختلافُ المصطلح العربي المرادف للإنجليزي أو الفرنسي بين قطر عربي و جاره القطر العربي على الرغم من وحدة اللسان العربي و غنائه عن اصطناع جذور دخيلة عليه بمثل ما فعل الغرب في اصطناعه اللاتينية . و هذا لا يعنى امتناع اللاتينية و غير اللاتينية من لغات الغرب على الولوج في صلب العربية كلما اقتضت الحاجة ، كان يلقي المترجمون عُسرا في اقتناص الكلمة العربية التي تؤدّي المعنى على وجهه الصحيح ، أو أن تكون اللفظة الدخيلة ذات رواج و حظوة على كل لسان لسهولةا بالقياس إلى اللفظة العربية أو لدنوؤها غير مُدافعٍ من روح المعنى ، أو لكليهما معاً

و إن قضية المعجم العربي لا تقتصر على لغة العلوم الطبيعية والإنسانية فحسب ، و إنما تمتد لتشمل معاجم اللغة العربية ذاتها . فأكثر هذه المعاجم بُعداً به العهد كلُّ البعد عن عصرنا ، و اكتظُّ بالغريب والمهجور من المفردات ؛ و لا يعنى ذلك أن نجحد القيمة التعليمية الباقية أبد الدهر لهذه المعاجم لكل قارئٍ للتراث العربي من شعر و نثر ، كما لا يعنى ذلك أن داعياً إلى التجديد أو مُدعياً له يملك أن يُلقَى بهذه المعاجم إلى مستودع النسي و الممجوج من ذاكرة الثقافة العربية ، ثم لا يعنى ذلك أيضاً أن نجحد الجهود النبيلة لمجمع مصر في التوفر على إصدار معجم وسيط و آخر و جيز و ثالث كبير صدرت منه إلى اليوم بضعة أجزاء .

و لكن الذي لا شك فيه هو أننا بأشد الحاجة إلى المزيد من المعاجم العصرية بمعنى الكلمة ، التي تعتمد الأساليب الغربية في المداخل إلى موادها ترتيباً أبجدياً على ما تجي عليه لغة الحديث و الكتابة ، لا على ردُّ الكلمة إلى مصدرها الأصلي كما هي الحال في السواد الأعظم من المعاجم العربية التي بين أيدينا اليوم . و لا بد في هذا المقام من الإشارة بمعجم " المنجد " الذي احتفى به رجل على رأس المجمع المصري إذ قال : " إن أبسط الأميور في

تبويب المعاجم أن تُرتَّبَ الكلمات على حسب نطقها لا على حسب تصريفها ، و هذا ما انتهى إليه فن المعاجم الحديث ، و إن من اليسر تطبيقه على العربية و إن تكن لغة اشتقاق "

و من العيوب الملحوظة في المعاجم الوسيطة و الوجيزة أيضاً غياب الفعل المضارع عن مداخلها الفعلية علماً بأن تصريف المضارع من أدق دقائق اللغة ، فكيف يُتاح للمتعلم أن يعرف أن " حَرَصَ " يقابلها في المضارع " يحرِصُ " وليس " يحرِصُ " أو " يحرِصُ " أو أن مضارع " عَجَزَ " هو " يَعِجِزُ " و ما إلى ذلك .

و بالجملة فإن المعاجم العربية بحاجة ماسة إلى التجديد شكلاً و موضوعاً ، و المراد بالشكل هو الترتيب و التبويب ، و بالموضوع إثراء الحصول المعجمي بالزيد من المفردات المعاصرة التي لا غنى عنها في زمن تبدل فيه وجه العالم و مضمونه بفعل العلم و المدنية . و لسنا بذهابين في ذلك مذهب البستاني الذي دعا إلى تخليص المعجم العربي الحديث من المهمل و المشترك و المترادف و الأضداد و الفروق ، و إن كان ينبغي لهذه الدعوة أن تكون محل نظر على أن تُفردَ للمستبعد من هذا المعجم الحديث معاجمه الخاصة به ، و لنا في معجمات الغرب المتخصصة في المترادفات *synonyms* و الأضداد *antonyms* الأسوة في ذلك . كما لا بد للمعجم العربي من العناية بالتتبع التاريخي لنمو المفردات صوتياً و دلاليّاً، المهجور منها و الجاري على اللسان المعاصر على حد سواء فيما يُعرفُ عند الغرب بالإيتيمولوجيا *etymology* ، و هو فرع أساسي من علم اللغة مهملاً أيما إهمال في البحوث اللغوية العربية ، رغم أنه مفتاح التجديد في سائر لغات العالم سواء بالإحياء أو الأطراح اللفظي .

أما مشكلة النحو العربي و الأسلوب الأمثل لدراسته فإنها تكاد تكون أمّ المشكلات التي تواجه دارس العربية ، يستوي في ذلك دارسوها من العرب و غير العرب . و واقع الأمر هو أن السواد الأعظم ممن لا يُلحنون و لا يتعثرون في الكتابة أو القراءة الصائبة للعربية إنما يكتفون بالتر اليسير من قواعد النحو التي تعينهم على ذلك ، دون تعمق خباياه و اكتناه أسراره التي تفصّل بها المراجع النحوية ، لأنّ ما يعلّقُ بذاكرتهم من النحو بعد إتمام تعليمهم المدرسي لا يتجاوز بضعة أسس من أخوات كان و إنّ و المبتدأ و الخبر و الجملة الشرطية و أدوات نصب و جزم الفعل المضارع و الفاعل و المفعول و صيغ

الإضافة و أسلوب الاختصاص و الأسماء الخمسة و تمييز العدد و ما إلى ذلك من عُمَدِ للنطق و الكتابة السالئين من الخطأ .

و إن كان ذلك يعنى شيئاً فإنما يعنى أن النحو ، مثله مثل أية صنعة أو أى فن ، تطبيق قبل كل شئ ، ومسألة ذوقٍ و حسنٌ لُفويين سابقين على القواعد و النظريات الجافة التي تُسردُ في المراجع التعليمية على نحو يوقعها من نفس المتعلم أسوأ موقع ، و يُرثها من قلبه أسوأ منزلة بما يُكرهه إليه دراستها و يَكيدُ لها عنده فيقع الشقاق ، و تدبُّ العداوة والبغضاء بين المتعلم و العلم الذي يقع له في تلك المراجع . و من تحصيل الحاصل أن نقول إن التطبيق كان أسبقَ من التنظير بعدة قرون في النحو و في الشعر أيضاً ، فقد جرى اللسان العربي بلغته حديثاً وخطابةً و شعراً جرياً سالماً كما يجرى النهر في مجراه الطبيعي إلى أن خيف على اللسان العربي من لسان الأعاجم بعد توسع الدولة الجديدة و دعت الحاجة إلى التنظير كما نظرت اليونان من قبل الفلسفة والرياضيات و الطب و ما إليها ؛ فمن قائل إن أول النحاة هو الإمام عليٌّ ، و من قائل إنه أبو الأسود الدؤلي ، و من مُخطئى لهذين الرأيين وقائل بأن عبد الله الحضرمي هو أول المتكلمين في النحو ، كل ذلك قبل صياغته النظرية على يد سيويه إحياءً لعلم شيخه و أستاذه الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي صنّف بحور الشعر ودوائر عروضة بعد دهرٍ قرضته فيه العرب بالسليقة و الفطرة والممارسة .

و قد كانت هذه حال الموسيقى و حال الفنون التشكيلية في الغرب التي كان للتطبيق و الممارسة فيها السبقُ على التنظير بعدة قرون . و ما النظريات الموسيقية و الائتلاف النغمي و السلم الكبير و الصغير والأبعاد و قلب صورهما و الكونترابنت counterpoint و ما نظرية اللون و قواعد التصوير الزيتي و المائي و النحت إلا بمثابة التقنين العلمي المجرد لما جادت به قريحة أجيال متعاقبة من المبدعين بالفطرة الذين لم يعينهم في شئ أن توضع لممارستهم النظريات لأنهم كانوا - غير شاعرين - الواضعين الفعليين لما صيغ من بعدُ من قوانين نظرية أملتها في واقع الأمر موهبتهم .

و الذي نرمي إليه هو أن يعتمد تعليم النحو منهجاً وظيفياً تطبيقياً مع الكثير من التيسيرات التي تُعَبِّدُ للدارس طريقه ، و تُميطُ عنها الأذى والعسر اللذين يعترضانها حتى اليوم . فلا بد من ثورةٍ على كتب النحو ومادته و على مناهج النحاة ، و حسبك أن تعرف أن ما يربو على الخمسة والخمسين باحثاً من أئمة العربية قد توفروا على شرح

كتاب سيويه و تفصيل مشكلاته و أبنيته ؛ أفلا يكفيننا هذا الوَلَةُ التاريخي بترائنا النحوي حتى نشرق في توجيه مسعانا وجهة معاصرة صوب التيسير والتجديد والتنقية من العَسْف و التعالم النظري الذي يحتمل الأمور فوق ما تحتمل ؟ فما جدوى التخريجات الإعرابية البالغة التعقيد التي تُسَوِّغ لك مثلاً نصب أو رفع أو جر الاسم الواقع بعد " لاسيما " ، ليس حسبك علماً و تيسراً أن تعرف أن جميعها صحيح دون استظهار لقاعدة الإعراب التي تُقسّم لاسيما إلى " لا " و " سي " و " ما " حيث يختلف الإعراب في كل حالة من هذه الحالات الثلاث اختلافاً يوقعك في اللبس و التخبط ؟

ثم انظر إلى إعراب هذه الآية القرآنية : " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ " ، الكاف : حرف جر زائد لا متعلق له ، و مثله : اسم مجرور لفظاً في محل نصب نعت لخير محذوف تقديره موجوداً ، و شيء : اسم ليس مرفوع ، و التقدير : ليس شيء موجوداً مثله ؛ أليس هذا عسفاً في التنظير و التخريج ؟ ألا ترى أن الأيسر من ذلك أن تُعرَب " كمثلته " جاراً و مجروراً مع اعتبارها خيراً مقدماً للنس في محل نصب ؟

هذا و لا يسعنا أن نغمط الدكتور شوقي ضيف في كتابه " تيسيرات نحوية " و الأستاذ عبد العليم إبراهيم في كتابه " النحو الوظيفي " حقهما فيما أنجزا على طريق تيسير النحو على متعلميه . كما لا يسعنا إنكار الجهد الرائع للأستاذ عباس حسن في سفره الضخم " النحو الوافي " الذي يعرض النحو عرضاً عصرياً مفصلاً بين يدي من يريد الاستزادة دون أن ينوء بعبء الخوض بين طيات الأسفار القديمة حتى يظفر بضالته منها .

ويلحق بمشكلة إحياء النحو و تجديده ، بل يرتبط بها ارتباطاً غير منفصم الغرى مسألة التيسير اللغوي على الناطقين بالعربية ، و أهمية اجتناب الغلو في التخطيطة و التصيد لزلزلات القلم و اللسان في كثير مما شاع ، خطأ أو عسفاً ، أنه من غلط القول . و لكسى نقتفي الصواب في مظانك فإن علينا أن نعرض على لغة القرآن و على لغة الشعر و النثر مما أبدع فحول المحدثين ثم الأقدمين كلَّ تعبير لغوي يتراءى لنا أنه مثارٌ للرَّيب و الشُّبهات . و نقول : " على لغة القرآن و لغة فحول المحدثين ثم الأقدمين " لأن لغة القرآن لغة عصرية بمعنى الكلمة ، و حسبك أنها حَفِظَت العربية من الزوال فيما تلا البعثة المحمدية من عصور بما فيها أشدها حُلُكَةً و اضمحلالاً في الفكر ، و أنها نشرتها في أصقاع ما كان لها أن تلفظ

بلغت الضاد لفظة واحدة ، و أنها طفرت بالخيال وباللسان العربي من سُترة الحياء إلى عنان السماء ، فبسطت للمخيلة الشعرية والأدبية آفاقاً من المكان والبيان لم تخبرها من قبل . فمن حيث المكان، لم يعرف البدوي من مراتع أو ملاعب لخياله البكر تتجاوز التحام صُفْرَةَ أرضه بزُرْقَةِ سمانه، وما يرصّع هذه السماء من لآلى في دُجْنَة ليله ، و ما يفصل بينه و بين أحبته من سهول و حُزُون إذا ظَنَنْتَ بهم البعير لربوع غير الربوع و ديار غير الديار . و بانتشار الدعوة و اتساع الدولة انطلق الخيال العربي من تخومه الجائرة إلي آفاقه الجديدة الشاسعة .

أما من حيث البيان فإن القرآن قدّم بين أيدي العرب معجماً جديداً من فنون البلاغة و البديع و البنية العبارية و الدلالة اللفظية و النحو والصرف و الرُخص في القول و الأصوات اللغوية و المُعَرَّب و المشتق والدخيل و المولّد و النحت اللغوي بما يتحدى مرونة و إحكام أى نصّ عصري .

أما أن يكون لكتابات المحدثين من فحول الأدب السبق المرجعي على كتابات الأقدمين في معرض الاحتكام بين الصواب و الغلط في القول ، فإن له ما يبرره . أولاً : كونهم فحولاً لغويين تعبى الخيل من أراد أن ينال منهم نيلاً ، و ثانياً : كونهم معاصرين (و لا يشترط بالطبع أن يكونوا أحياء) ، لأننا نعيش هنا و الآن و ليس "هنالك" - "ذات يوم" ، و غنى عن التنويه أن الفكر في يومنا غيره في أمسه ، و ثالثاً : أنّ الوشائج بين المحدثين و الأقدمين أوثق من أن يُشكَّك فيها الشُّكَّك ، أفلم ينهل أولئك من هؤلاء ؟ ثم ألم يقف أولئك الفطاحل المحدثون حياهم على تطوير لغتنا بحكم تطور الفكر و قضاياها الجديدة التي خاضت فيها أعلامهم بلغة جديدة و محصول لفظي لا يبي يتجدد كل يوم بما ينضاف إليه من مفردات العصر؟ هم يمتازون إذن عن السلف بكل المقاييس ، فمن ذا يملك أن يقطع عن فضلهم الجاري سبقه إلى إصلاح غلط اللسان و هفوة القلم ؟

و من بين المهموم العتيقة الجديدة معا للعربية مشكلة الرّسم العربي أو ما يسمى بالإعجام أي التَّقَطُّ للأحرف ، و الشُّكْلُ فتحا و كسرا و ضمنا و سكونا، مما يقتضي قارئ العربية إماما محكما بقواعد النحو والصرف حتى يسلم نطقه من اللحن إذا عرّض له نص

غير مشكول ، و هو الأمر الطبيعي المؤلف في جُلّ الإصدارات العربية من مؤلفات أدبية و علمية.

و يلتزم القارئ باستنتاج المعنى لكي يضع بنفسه علامات التشكيل فوق فعل مبني للمجهول أو فوق مفعول لاسم أو فوق فاعل بَعُدَتْ به الشُّقَّة عن فعله و ما إلى ذلك من صعوبات تستعصي على الحصر . أضفْ إلى ذلك تغير رسم الحروف و فُق موقعا من الكلمة بحكم الكتابة المتشابهة للأحرف العربية . و هذه ليست مشكلة طارئة على لغتنا ، و إن كانت معاصرة أبداً ، إذ تلقى جذورها عند العرب الأقدمين في اللهجات المتعددة للعربية قبل لغة القرآن و بعدها ، و نلقاها في اللحن الذي طرأ على اللسان العربي في عصر توسُّع الدولة الإسلامية و ترامي أطرافها إلى ما هو أقصى من تخوم الفرس و الروم ، مما أيقظ همَّة النُّحاة الأولين ، كما ذكرنا من قبل ، لكي يَطَبِّوا للسان أعاجم المسلمين و ما اعترى العربية الجارية عليه من أدواء بحكم العُجْمَة . أما فيما يتعلق بمشكلة الإعجام (التَّقَط و الشُّكْل) فقد تعددت جهود فقهاء اللغة القدامى و المعاصرين ، و من بينهم مجمعيون مُبرِّزون ، لاجتياز هذا العسر الذي يظلّ حجر عثرة في طريق التعلم و المطالعة . فقدّم بعضهم حلولاً غير عملية تفوق أضرارها كل نفع مرجو ، و تراجع الكثير منهم في شيخوخته عما توقدت له حماسته في شرح شبابه من آراء ، و من بينهم العلامة الباقعة الدكتور على عبد الواحد وافي الذي لم يتردد في الطبعة السابعة من كتابه القيم " فقه اللغة " عن إعلان التراجع عن الرأي الذي اعتنقه في الطبعة الأولى الصادرة في الأربعينيات فيما يتعلق بمشكلة الرسم العربي .

و إذا كان الأوروبيون و من إليهم يسلمون من اللحن في القراءة فانك لا تستطيع أن ترد ذلك إلى أن رسمهم يعبر تعبيراً محكماً عن أصوات الكلمات ، و إنما هو راجع إلى أن لغة كتابتهم لا تكاد تختلف عن لغة حديثهم ، فيكفي أن يُرْمَزَ للكلمة على أية صورة لينطق بها القارئ على الوجه الصحيح .

و هنا نبلغ همّاً آخر من هموم العربية هو مشكلة الازدواج اللساني *diglossia* الناجم عن البون الشاسع بين الفصحى و العامية مما يخلق مستويين من اللغة أحدهما معياري *standard* و الآخر دارج *colloquial* . و تعاني العربية من هذا الازدواج اللساني بأشدّ مما تعاني منه أية لغة

سواها على تفاوت في درجة الازدواج " الفصحامي " بين قطر عربي و جاره . فمن بين المجموعات الخمس للهجات العربية العامية (المصرية و النجدية الحجازية و السورية الشامية و العراقية و المغربية) فإنك تجد أدناها إلى الفصحى مجموعتي اللهجات المصرية و النجدية الحجازية ، بينما تبعد المجموعتان العراقية و المغربية عن الفصحى بُعداً ملحوظاً لتأثر الأولى باللهجات الآرامية و التركية و الكردية و الفارسية و تأثر الثانية باللهجات البربرية حتى أصبحت عامية المغاربة أبعد اللهجات العربية قاطبة عن لغة الفصحى . و لهجات البدو في الأقطار العربية أفصح من لهجات الحضر و أقرب إلى اللسان العربي القويم ، و إنك تلقى هذه الظاهرة بين قبائل العرب التي تسكن الفيوم و بني سويف و الشرقية و البحيرة من القطر المصري من أمثال الفوايد و الرماح و الحرابي و البراعصة و أولاد على و الضعفاء و خويلد و سمالوس الخ... بل إن لهجات القرى ، على وجه العموم ، أفصح من لهجات المدن و أشد تمعنا على الدخيل من الألفاظ ، و قد يُعزى ذلك إلى العزلة التي كانت تكتنف مجتمع الريف قبل انتشار التليفزيون الذي أصبح لبالغ الأسف أول مسبباً للنشء خُلُقاً و لساناً، و أسبق في هذا الدور من الأسرة و المدرسة .

و هذا يقودنا إلي هم آخر من هموم العربية ، و هو ازدواج أيضا ، إلا أنه أشد نُكالا بلغتنا من سابقه ؛ و هو من مثالب الإعلام (الإعلان) المرئي ، فقد بث هذا الجهاز في بعض الأقطار العربية - و على رأسها مصر - ازدواجا بين الثقافة و الإعلام على صعيد الفكر ، و ذوّبَ التخوم و الفواصل بين لغة كل من الثقافة و الإعلام و الإعلان فأفسد الفصحى و أفسد العامية بتركيز جهوده ، بل نقول - في غير مبالغة - بقصر مُهمته على الترويج لسلعة "السلطة" بمثل ما يروج لأية سلعة تجارية، بل أسوأ، لأن الاختيار من بين عدة بدائل متاح في تجارة السلع، أما " السلطة " فإنها السلعة الوحيدة المفروضة فَوْقياً كإعلان غير مدفوع الأجر و غير محدود بمساحة زمنية . و هذه شيمة كل إعلام مسخر في خدمة الدولة ، مكثف الجهد للسهر الدءوب على تجميل قسماقها ، و تزويق ملاحمها في عيني الشعب ، و تزيين كل ما تتخذ من قرارات أو تنفذ من مشروعات حتى لا يكون في الإمكان أبدع مما كان ! و لا عجب أن ينصرف إعلام هذه حالة عن هموم الثقافة و المثقفين ، فليس من صالحه و لا صالح النظام المهيمن على مقاليد في شيء أن ينمو "

الرأي العام "public opinion" الذي كان منذ قرون خلت الطوفانَ الجارف المقتلع للدكتاتورية من أعمق جذورها في المجتمعات الغربية.

و بالتأصيل المنظم لهذا الازدواج المنكر بين الثقافة المعيارية (التي تقيم أَوَدَ الفكر و من ثم أدائَه اللغَة و ما ينتج عنهما من رأى عام مستنير) و بين الثقافة الموجهة و الأكثر انتشاراً (التي تتد الفكرَ و من ثم اللغَة فالرأي) تُحقن اللغة حقنا منكرا بأفة تسرى بسُمها السريع المفعول وغير الملحوظ معا في لسان أمة بأسرها . و هكذا تنحط اللغة تحت وطأة الدكتاتورية . وبالجملة : لا ديمقراطية بغير لغة سالمة من اللحن والانحراف ، لأن عنفوانها - تحصيل حاصل - من عنفوان الفكر ، فإن سلّمت - وهي جسمه الحَيُّ الفائر - دَلَّت يقينا على سلامته وعلى وعيه الحضاري الكامل بحقوقه وبعوقه من العالم و من ثم قدرته على إبداع وجوده .

و ننتقل الآن إلى آفة أخرى من آفات العريية وهي مشكلة تعليمها للناطقين بها لغةً أولى . إن مسؤولية التعليم في عالمنا المعاصر هي محور الفوارق الطبقيّة بين الأفراد من جهة، و بين الأمم من جهة أخرى لفتح الأبواب الموصدة في وجه الفوارق الطبيعية و القدرات الشخصية حتى توتى أكلها بما يُطلق الملكات و يجرر المواهب إعمالا لمبدأ تكافؤ الفرص بين الأفراد على الصعيد المحلي و بين الشعوب على الصعيد العالمي ، حتى يُتاح لمن لم تُواهم الصدفة الجيوفيزيائية أو المناخية لينعموا بالثروة الكامنة في بطن أرضهم أو على سطحها من نَظف غزير أو نبت و فير أن يُعملوا عقولهم و ملكاتهم ، جهد استطاعتهم ، لعتق أوطانهم من العبودية التي يفرضها القطب الواحد في عصر العولمة على كل من لم يملك إرادته و لم يعصَ عليها بالنواجذ . و من المؤسف أننا بدلا من مجابهة هذا التيار المتحدى بواسطة النهوض بالتعليم كما ينبغي لأمة ذات سبق حضاري ونهج احتذته الأمم التي جاورتها و الأمم التي عبرت بها غازية أو فاتحة - والحديث هنا عن مصر بالطبع - طفقنا نتوسّع فيه كما لا كيفا ، وتعهدناه بالإفساد والتزوير للتاريخ في المقام الأول بما يفتتال فكرة القدوة و الرمز . و فيما اغتلتنا القدوة التاريخية ، اغتلتنا بالعبية القدوة اللسانية المبينة في فصاحتها . و توفّر على ذلك تدنّي في مستوى المعلمين الذين اقتضى التوسع العشوائي في التعليم تفرّحا كمّيّا لا كيفيا لأعداد هائلة منهم . وأصبح المعلم الذي كان إلى عهد

قريب قدوة و رمزا مهيبا تجفّل له قلوب الطلاب و تقفرو إلى مجاراته و محاكاته علما و سلوكا ، أضحوكةً و ماثرا للسخرية و الهذّر . وقد غدّى الترفيه (التسفيه) الإعلامي هذا الميل المنكر و ستمته بما يبث من تمثيلات تُحطّ من شأن المعلم و الطبيب بل والقاضي رمزِ الحق والعدالة . و بخلاف الأمم العربية الأخرى التي توفّرت على تعليم العربية بهمة صادقة نصوح بعد أن تخلّصت أوطانها من الاستعمار ، تخلّفت مصر وأصبحت في مؤخرة القافلة في رعاية العربية والحرص على تعليمها للنشء بعد أن كان اللسان المصري الفصيح على عهد الاستعمار البريطاني غمطا و مثالا يتطلّع إليه العرب إعجابا و إجلالا . و إذا كان مبرر عناية تلك الأمم العربية التي سبقت مصر في رعاية الفصحى بعد الاستقلال هو تقويم لسان أحنى عليه دهر الهيمنة الفرنسية وما إليها من معاول الهدم الإمبريالية ، فإن مصر لم تتعرض لمثل هذا التّيل من لغتها القومية على يد المستعمر ، بل على النقيض من ذلك ، فقد نمت العربية و نمت الإنجليزية على لسان المتعلمين على قدم و ساق نماءً يفوق العربية و الإنجليزية الجاريتين على لسان المتعلمين المعاصرين ، لأنك لا تملك إتقان لغة أجنبية كما ينبغي إلا بإتقانك لغتك الوطنية ، فإن معيار الإتقان للغة الأجنبية ليس قدرتك على التفكير بواسطتها و طلاقة لسانك إذا حدثت بها و إنما قدرتك على الترجمة عنها و نقل أفكارها و روح معانيها نقلا أميناً يتعمق خباياها و يلتقط الدرّ من أغوارها .

و قد أصبح اليوم من الحقائق المسلم بما بين علماء اللغة و فقهاءها أن خير الوسائل لتعلّم لغة أجنبية لا يكون إلا من خلال اللغة القومية للمتعلّم ، فلا غرور أن تضمحلّ اللغة الدخيلة على لسان بلغ من الفاقة في لغته الوطنية درجة يُرثى لها . الثقافة العالمية إذن لا تقوم إلا على ركيزة راسخة من الثقافة المحلية ، و الذات القومية المحددة القسامات عبر لسان قويم تمُدُّ من هذا اللسان جسرا ممهدا إلى غزو فكر الآخر والتأثر و إياه .

و من بين هموم العربية التي فرضها عصر الكمبيوتر و الإنترنت (الشبكة البينية للمعلومات أو البين-معلوماتية كما يروق لنا ترجمتها على هذا النحو) هو تخلف العربية تخلفا محزناً حقا عن احتلال الموقع اللاتق بها في هذه الشبكة ؛ و قد كان الأجدر بما أن تغتم هذه الثورة الحقيقية في التواصل بين الأمم لنشر لسانها و آدابها و علومها الإنسانية، و هذا أضعف الإيمان . و لكنك لا تجد العربية على الإنترنت إلا في مواقع خصّصت

للدعوة الإسلامية ، كما تجدها في مواقع بعض كبريات الصحف العربية ، وهذا وحده غير كافٍ من حيث إن بوسعك الولوج إلى مكتبات إلكترونية كثيرة منتشرة على هذه الشبكة لفتح و اقتناء ما لذّ و طاب لك من آداب الإنجليز والفرنسيين ، كما يسعدك مطالعة الفلسفة و العلوم الإنسانية والطبيعية في عشرات الآلاف من المواقع الإنجليزية و الفرنسية وغيرها، أما إذا بحثت عن موقع عربي واحد يروى ظمأك إلى لغتك و إلى الفكر الذي تعبر عنه فسيتحطّن سعيك لا محالة .

لقد مرّت العربية منذ ميلادها إلى عصرها الحاضر بأطوار شتى صعوداً و هبوطاً ، و كانت في كل من هذه الأطوار مرآة صادقة لحالة الفكر السائد في كل طور ، كما كانت تعبيراً نابضاً بحاجات الفكر ومقتضياته في كل عصر. و كان من حسن طالعتها ، منذ نعومة أظفارها ، أن عهد تشردّمها اللساني و تفرّق دماغها بين القبائل لم يلبث أن حُسم بانعقاد اللواء للهجة قريش . والأمر العجيب حقاً أن ما وقّع لنا من أقدم الشعر الجاهلي لم يتعدّ عمره قرناً و نصفَ القرن قبل نزول القرآن ، والأشدُّ عجباً منه هو أن أكثر هذا الشعر ، إن لم يكن جُلّه ، لم تبدعه قريش و إنما شعراء غيرِها من بطون العرب و قبائلها في عصر كانت فيه قريش - في عُكاظ و ما إليها من محافل الشعر - حكماً عظيم الشأن بين الشعراء ، و ميزاناً حساساً لقريحتهم وفحولتهم الشعرية . ثم جاء فصّالُ لهجة قريش على لسان القرآن توكيداً لحظوّها، و انتشالاً لها من لُجّة البداوة إلى بسطة الحضارة . كان القرآن ثورةً نثرية على الشعر ، فإذا كان الشعر ديوان العرب كما يقال ، فإن القرآن كان بمثابة أول قصيدة نثر مطوّلة فجأت اللسان العربي ببيائها المحكم و إنجازها المين في تحدّ للنثر والشعر لم تعرف له العرب و لا غير العرب نظيراً .

و لنضرب مثلاً بالاستطراد و التفريغ اللذين كانا من الخصائص الجليّة للشعر الجاهلي . و في ذلك يشبه الشاعر شيئاً بشيء آخر ، ثم يهمل المشبّه إلى حين ، و يأخذ بالمشبّه به فيصفه وصفاً يطول أو يقصر وفق هواه و على حسب ما تقتضيه الحال ، و هذا هو التشبيه القصصي ، عُرف به النابغة البياضي و لبيد بن ربيعة و غيرها .

ودعنا الآن نتأمل من القرآن آية النور :

" الله نورُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِثْقَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . " (آية ٣٥ / النور) . أى استطراد وتفريغ هذان ؟

ثم انظر إلى هذا التحليل النفسي العاطفي البليغ و إلى تدخُل العناية الإلهية و ما ينطوي عليه التعبير القرآني هنا من إيجاز و جمال :

" وَ أَصْبَحَ فُؤَادُ أُمَّ مُوسَىٰ فَارِعًا إِنْ كَادَتْ لِتُنَدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَيَّ قَلْبَهَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . " (آية ١٠ / القصص) .

ثم لتأمل هذا السرد القصصي الفنى المعجز من سورة هود :

" وَ قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَ كِ وَ يَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَ غِيضَ الْمَاءِ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَيَّ الْجُودَىٰ وَ قِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَ نَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنِّي وَ عِنْدَكَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ . قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . " (آية ٤٤ - ٤٦ / هود) .

أى سيناريو و حوارٍ روائيين هذان ، ثم أى إيجاز و تركيز في هذه اللقطات المشهودة المسموعة التي تزجُ بقارئها إلى غمرة الطوفان فانهساره، ثم إلى مشهد الأب النبي يستصرخ ربه متشفعاً لابنه الضال ، فيجاب في بيان لم تعرفه العرب و لا غير العرب شعراً أو نثراً :

"إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ . "

نعم نزل القرآن بلسان عربي ، و إنما بغير ما جرت به العريية على لسان العرب ، لأنهم لم يعرفوا هذا البيان من قبله ، فعربيته ليست من عريية الجاهلية في شئ ، و ليست من شعر البداوة و لا من شعر الحضارة في شئ (حيث لم يكن الشعر الجاهلي شعرَ بدوٍ كُله و إنما كان ثمة شعرٌ للحضر بمثل ما كان للبدو شعرهم) ، و قد دعا ذلك محمداً إلى تلاوة القرآن على المسلمين بلهجاتهم القبليّة المختلفة معاونة لهم على فهمه وحفظه . و سواء اتفقنا أو اختلفنا مع عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين في أن الشعر الجاهلي منحول كله ، و أن ما بقى بين ظهرانينا من امرئ القيس و زهير بن أبي سلمى و طرفة بن العبد و

من إليهم من شعراء الجاهلية إن هي إلا أسماء دُرستْ وبادت آثارها الأدبية ، و أن ما وصلنا من هذه الآثار ليس إلا من انتحال الرِوَاة و القُصَّاص ؛ فإننا نختلف و إياه في قوله إن من أراد أن يلتمس حياة الجاهلية فليلتمسها في القرآن لا في الشعر الجاهلي . لأنه إذا كان من شأن القرآن أن يُلمَّ بجوانب من حياة الجاهلية تتعلق بأخلاقها و عقيدتها مما يقتضيه السياق القرآني ، و تتوجَّه صوته الرسالة الخمدية على نحو مباشر، فإن القرآن لا يعنيه في شيء أن يصف لنا حياة البادية بسَمَرِها و تشبيها و صيدها و أسواقها و العصبية القبلية التي أذكت نيران الحروب بين بطونها، كما أنه ليس من شأن القرآن أن يصف لنا حياة البدوي في ليل البطحاء و نهارها ، في غدوه و رواحته، و وروده و صدوره ، و متجه البئر و حُدَّاته الناقاة ، كما ليس من شأنه أن يُقدِّم بين أيدينا حالته الوجدانية فيما يكابد من لسواعج الشجن كلما طال أو قَصُرَ به اليأس عن محبوبته ، أو ما يعتريه من مباحج الزهو و الحبور إذا انسَلَّ في مامن من عيون الرقباء و اغتمت خُلُستةً للقبائها، أو ما يعالج من مشاعر الفخر و الحماسة و الاعتداد بكرم المَحْتَد و الجود و الإقدام وما إلى ذلك من خلال و خصال اشْتَهَرَتْ عن العرب .

لقد كان القرآن ثورة على الفكر من الخارج ، و ثورة على اللغة من الداخل ، فلا عجب أن تكون عربيته لا كالعربية المألوفة للعرب ، و إلا ما كان التوفيق حليفه إلى غزو القلوب بشكله الفني (الفورم ...) قبل غزوه العقول بمحتواه و مضمونه المعنوي . ولنا في واقعة إسلام عمر بن الخطاب و إسلام غيره بينة على ما نقول .

نريد أن نُخلِّص من ذلك كله إلى أن صلاحية القرآن لكل زمان و مكان ليست صلاحية مضمون و محتوى بما ينتظم من وقائع و أحداث و تعاليم فحسب ، و إنما هي قبل ذلك ، و بالأحرى ، صلاحية شكل فني و أسلوب بياني و بنية عبارية ... و تفرُّد لفظي يعترف منه و يقتبس بقبسه كل من ينطق بالعربية إلى يوم الدين . فلا جُحاح عليه أن يستعير تعبيراً قرآنياً فصيحاً هنا أو هناك في الحديث أو الكتابة، أو أن يشتق من ألفاظ القرآن و ينحت منها لُغويّاً كما يحلو له، و أن يلتمس في القرآن مأمناً و مستودعاً للاحتراز من الخطأ و الخطل في القول كما أسلفنا لأن القرآن حارس أمين على اللغة ، لم يتركها و لم تتركه يوماً واحداً منذ أربعة عشر قرناً ، و لم يَقِفْ مشروعُه الثوري بإزائها على مجرد إبلاغ الدعوة ثم خلعه من يده كمن يخلع قفازاً ، لأنه مسؤول عنها اليوم و

غداً بمثل ما كان مسؤولاً عن فطامها من الجاهلية . لقد سبّت عن الطوق في رحابه ، و إنه على إغاثها وصونها لقادر . القرآن إذن ، لا الشعرُ ، ديوان العرب ، لا بمعنى وثيقة حولياتهم ، و إنما لكونه الحفيظ الأمين على مستقبل لسانهم ، وإن لهم فيه لحقوقاً لا تنفد أبداً ، و أولها استلهامه و الاقتباس منه و النقل عنه نصاً وتوليداً بما يساير روح العصر الذي نعيشه ، ويصون العربية في غدها كما صانها في أمسها ، و يُقوّم اللسان و يُقيه من عثراته .

منهج الكتاب :

إن من تشغله قضايا لغته هو قبل كل شيء مجتهد ما استطاع إلى الاجتهاد سبيلاً ، و هو حلقة في سلسلة حلقات من سبقوه إلى الاجتهاد ، ثم هو ذو جهد متواضع على هذه الطريق الشائكة مهما بلغ هذا الجهد من جسامه ، لاسيما لو كان سابقوه في هذا المضمار قد وقفوا حياتهم على ما اجتهدوا فيه و جاهدوا من أجله . و لا مفر من تجشّم وعورة السبيل التي شاء لنفسه أو شاءت له مقاديره أن يسلكها . و لا مفر له - و السبيل غير ممهدة - من أن يُعرج على مزالق خطر ، و منعطفات غير آمنة ، و جُرف هار هنا ، و شَرَك منصوب هناك ؛ بيد أنه متى عيّن لنفسه غاية ، و تثبّت طرفه على هدف فإنه لا يملك أن يؤثر التّقية و لا أن يعود أدراجه من حيث أتى ، لأن من آمن بنبل رسالته لا يعرف من الطرق إلا ذوات الاتجاه الواحد، بل إنه يؤثر اتقاء الإياب لأن عيني رأسه المصوّبتين باتجاه غايته و شاغلته لا يمكن أن تسمحا لهذا الرأس بالاستدارة إلى الورا . و هو واقع في الخطأ لا محالة من حيث إنه مجتهد ، ثم هو رحيب الصدر للنقد بل مرحّب بمقدمه ، محتف به ، مُرّله من نفسه خير مرلّ ما دام نقداً هادياً ومرشداً و مقوّمًا . و إن هذا العمل ليجذّل بمعارضيه قبل مباركيه لأن أولئك يطمحون إلى الكمال ، و لا شك أن ملاحظاتهم تسلط الضوء على أوجه النقص فيه بما يجعلهم جزءاً لا ينفصل من القافلة التي حملت الأمانة فأرقها سمو الغاية و نبل المقصد .

و قد رأينا أن البحث في تجديد اللغة يقتضي منهاجاً تاريخياً نقدياً ينتظم من حياة اللغة ماضيها و حاضرها و مستقبلها . و لا يعني ذلك بالطبع اضطلاع هذا العمل بتاريخ

آداب العربية و علومها ، و إنما المعنى بالمنهج التاريخي بصدد التجديد هو الدراسة الانتقائية للنصوص الأدبية والعلمية من زاوية ما أحدثته في العصر الذي كُتبت فيه من تجديد لغوي . فالجزء الأول من هذا العمل يختص بالإجابة عن السؤال : " كيف جددت العربية دماءها على امتداد تاريخها ؟ " ، و إن شئت سَمَّه : " علامات على تاريخ تجديد دماء العربية " ، و قد اقتضانا هذا القسم الارتحال الطويل على درب النمو اللغوي للعربية منذ بزغت إلى الوجود حتى اليوم، فبتعبنا في مهدها الأول في الجزيرة العربية حيث خرجت إلى النور ، ووقفنا يزاء الجاهليين وقفة تمحيص و تحقيق من جهة ، و نقد و تقويم من جهة أخرى ، ثم قَفِينَا بفضام اللسان العربي و تدفق دمه اللغوي حاراً فتياً في عروقه على يد القرآن ، ثم أتبعناه بحال العربية في صدر الإسلام و عهد الأمويين فالعباسيين (في العصرين العباسيين الأول والثاني) ، ثم في العراق و فارس و الشام و مصر و الأندلس ، ثم عَرَجْنَا على ركود الدماء في عروق لغتنا ثم تَخَشَّرْهَا عند إطباق ليل الدولة العثمانية على سماء جُلِّ الأمم الناطقة بالضاد . وقادنا التيار الطبيعي للمنهج الذي اعتمدها إلى الحملة الفرنسية على مصر وإلى الدور الخوري الذي لعبته - مختارة أو غير مختارة - في شق الغيوم العثمانية عن الصبح الأبلج الذي أيقظ العرب من موامهم ؛ و كانت عيون مصر - بحكم دورها الرائد الذي قَبِضَهَا اللهُ له - أوَّل من اختلج لذلك البصيص من النور الذي ما عَتَمَ أن غمر المنطقة العربية بأسرها . و تناولنا عصر التنوير و الإحياء بشيء من التفصيل ، لأن ثورة الفكر التي شملت حركة الترجمة الأدبية و العلمية و التأليف في عصر محمد علي كانت استخراجاً فعلياً لجنة العربية من غياهب الجُبِّ التركي الذي تردت إليه ، و ساير بعث الفكر بعثٌ للغة حوَّها من غُثَاء يابس ذاو إلى عود أملد نضير لم يلبث أن أصبح طوع بنان مدرسة الإحياء في الشعر العربي المعاصر بزيادة أمير الشعر العربي أحمد شوقي و البارودي ، فالمدرسة التجديدية العقلانية بزعامة العقاد و مطران ، ثم المدرسة الرومانتيكية الغنائية (أبوللو) فتيارات الشعر الحر من بعد .

و لم يكن ذلك العود الأملد الجديد بالأقل طواعيةً للنشر منه للشعر حيث نشطت حركة الإحياء في النشر ، و أخذت فنون نثرية لم تعرفها العربية من قبل تتوافد عليها تثرى . و قد كان شغلنا الشاغل في هذا القسم الأول من الكتاب البحث عن أساليب الأقدمين و المحدثين في تطوير اللغة دون محاولة لأخذ الوقائع على الرغام إلى أرض التنظير بإحكام

قوانين تفسيرية على الظواهر اللغوية المميزة لكل عصر . و لكننا وجدنا أنفسنا طائعين لتيار التحليل الفني للجماليات اللغوية في كل عصر ، إذ رأينا أنه لا جُنَاحَ على هذا التيار أن يجرفنا في سبيله ، لأن الكشف عن تلك الجماليات هو من صميم مهمةً بحثنا . كذلك اقتضانا المنهج الذي اختططناه الكشف عن مثالب اللغة ومواطن الوهن فيها آيَّاناً وَجِدَتْ ، لأن من كان همُّه التجديد فلا مُتَدَخَّ له عن تحوُّر العيوب و النقائص، و إلاَّ فماذا يُصلح المصلح أو الطامح إلى الإصلاح ؟

و بعد الفراغ من البحث التاريخي النقدي صرفنا جهودنا صوب الحاضر و مشكلات العربية في واقعها الراهن التي عرضنا لها عرضاً سريعاً في هذه المقدمة ، فخصَّصنا الجزء الثاني من الكتاب لهذا البحث ، وأفردنا فصلاً قائماً بذاته لكل مشكلة ، و أفضنا في سرد النماذج العملية التي تجسّد كل مشكلة أمام القارئ تجسيداً حيّاً عارضين جهود الباحثين المعاصرين للتغلب عليها و اجتيازها ، و مدى توفيقهم في مسعاهم ، وعقبنا على ما اقترحوا من حلول مع الإدلاء بدلونا جهد استطاعتنا في المواضع التي قدّرنا عندها - و قد يخوننا التقدير - أن يكون لرأينا قيمة تُذكرُ أو فائدة تُرجى .

و بالجملة ، إن هذه إلا محاولة و دعوة إلى مشاركة الوعي العربي المعاصر في أشد قضايا عصره إلحاحاً لأنها قضية هُويّة و من ثمّ قضية موقع و منزلة من وجه عالم دائب التشكّل ، فإذا كان لنا ألا نقف منه موقف المتفرّج الذاهل عن نفسه ، الشارد عن مصيره ، الغافل عن دوره الإنساني، فلنشرع في تشخيص الأدواء ، و قد لا نُطَبُّ لها اليوم ، و حسبنا منها التشخيص حتى نُعبَدَ الطريق التي سيتأثر فيها المُداوون و المُطَبِّبون خطانا في غدهم، و لِلَّهِ ذَرْهَمٌ من مجددين ومصلحين ، و الله نعم المستعان .

محمد راضي

الجزيرة، يوليو ٢٠٠٥